المبحث الأول

منهج القرآن الكريم في الاستدلال

لقد اهتم القرآن الكريم بتوجيه نظر الإنسان إلى التفكير في خلق الله تعالى وعنايته وتدبيره لشؤون الكون. ويمكن أن نلخص منهج القرآن الكريم في إثبات وجود الله تعالى في أربعة أدلة:-

أولا : دليل الخلق والاختراع

ويعتمد على إثارة الفكر البشري للتعرف على ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودة كاختراع الحياة في الجماد والادراكات الحسية والعقل، وكاختراع الأرض وما فيها من أنهار وجبال راسيات، وهذا الدليل مبني على أصلين موجودين بالقوة في جميع فطر الناس:

أحدهما: أن هذه الموجودات مخترعة مبدعة لا على مثال سبق وهذا معروف في الحيوانات والنباتات فإننا نرى أجساما جمادية ثم تحدث فيها الحياة فنعلم قطعا أن هاهنا موجدا للحياة.

وأما الأصل الثاني: فهو أن كل مُختَرَع فله مُختَرِع ، فيصح من هذين الأصلين أن للموجود فاعلا مخترعا له، وفي هذا الجنس دلائل كثيرة على عدد المخترعات ولذلك كان واجبا على من أراد معرفة الله حق معرفته أن يعرف جواهر الأشياء ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات ، لأن من لم يعرف حقيقة الشيء لم يعرف حقيقة الاختراع والى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾[1].

ثانيا: دليل العناية والتدبير :

وفي هذا يوجه الله سبحانه وتعالى نظر الإنسان إلى أن هذه الموجودات التي خلقها الله تعالى بإحكام وإتقان ، إنما خلقها للعناية به ولأجله، فإن كل ما يتجدد في العالم من اختلاف الليل والنهار والسحاب الذي يجري في السماء والرياح التي تدفع السحاب والفلك التي تجري في البحر كل هذه الأمور موافقة لوجود الإنسان وحياته، وكذلك تظهر عناية الله في نمو الإنسان وهو نطفة إلى أن يصبح بشرا سويا. لذلك ينبغي لمن أراد أن يعرف الله تعالى المعرفة التامة أن يحاول التعرف على منافع جميع الموجودات.[2]

لاشك أن النظر في إبداع السماوات وسير الكواكب في أفلاكها ودورانها في محاورها دون أن تتصادم ، والتأمل في هذا الكون العظيم ودقة صنعه وإتقان إبداعه وتمام رعايته وكمال العناية به يؤدي بالإنسان إلى نتيجة يقينية هي وجود مبدع الكائنات ، وباريها وراعيها. وفي هذا يقول الله عزوجل: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ

---

١ سورة الأعراف ، الاية : ٧٧ ، ينظر الباقلاني وآراؤه الكلامية ٣٩٨ لـ د.محمد رمضان عبد الله.

٢ ينظر : مناهج الأدلة لابن رشد ص ٥٠١.

وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾[1].

ثالثا: دليل الفطرة[2]:

والمقصود به التنبيه إلى الدليل الكامن في داخل الإنسان الذي يصرخ فيه من داخله بالحقيقة الكبيرة التي لا ريب فيها ولاشك.. وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا الدليل من خلال النقاط التالية:

أ- **تبيين معنى الفطرة** وذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[3]

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدۡنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾[4] " فالاعتراف بربوبية الله وحده فطرة في الكيان البشري ، فطرة أودعها الخالق في هذه الكينونة وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته وحكم ما

[1] سورة البقرة ، الآية : ١٦٤.
[2] ينظر: دلائل التوحيد للقاسمي: ٢٣.
[3] سورة الروم ، الاية : ٣٠.
[4] سورة الأعراف ، الايتان: ١٧٢ - ١٧٣

تشعره في أعماقها من هذه الحقيقة ، أما الرسالات فتذكير وتحذير لمن ينحرفون من فطرتهم الأولى فيحتاجون إلى التذكير والتحذير ، إن التوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر منذ كينونتهم الأولى "[1].

ب- تحريك هذه الحقيقة الكامنة في داخل الإنسان من خلال دعوة الإنسان للنظر في نفسه كما في قوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾[2]. ثم بسؤاله سؤالا إنكاريا يدفعه إلى كشف هذه الحقيقة كما في قوله تعالى:﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾[3].

ج- فإذا أصر الإنسان على عناده فلا بد من تعقب خطواته على هذه الأرض ففي لحظة ضعف بشري ينسى الإنسان عناده لينكشف الحق الأبلج في داخل نفسه ومن ثم الاحتجاج عليه به.. وانظر هذا الذي قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[4] وقال: ﴿ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾[5] هو نفسه الذي قال لحظة الغرق : ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[6]. بل لقد لقد اعترف في لحظة ضعف قبل هذه سجلها عليه القرآن بقوله: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ

---

١ في ظلال القرآن ، سيد قطب : ١٣٩١/٣.
٢ سورة الذاريات ، الايتان :٢٠ – ٢١.
٣ سورة إبراهيم ، الاية : ١٠.
٤ سورة الشعراء ، الاية : ٢٣.
٥ سورةالقصص ، الاية :٣٨.
٦ سورة يونس ، الاية :٩١.

لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾[1].

رابعا- دليل الإعجاز:

الإنسان عاجز – لا ريب – من أن يخلق كخلق الله بل كأضعف خلق الله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾[2]. فالكون كله معجزة شاهدة بوجود الخالق – سبحانه – ولكن الإنسان قد يغفل عن هذه الحقيقة ، وقد يتغافل عنها عنادا واستكبارا، فيحتاج إلى منبه جديد لغفلته وبرهان أكيد لكبح عناده وتكبره ، ومن هنا كانت المعجزة الثانية والإعجاز الآخر المتمثل في قدرة الله سبحانه ، وهذا المبحث وإن كنا سنتناوله – إن شاء الله – في باب النبوة باعتباره جاء لإثبات صدق النبي الرسول ، إلا أنا سنمر هنا عليه سريعا لأن دليل إثبات الرسول هو دليل إثبات المرسل ومن باب أولى. ولنكتف بهذين المثالين فقط:

أ- في مناقشة موسى – عليه السلام – لفرعون يجمع القرآن بين الإعجاز من النوع الأول والثاني فلنقرأ: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ

---

[1] سورة الأعراف ، الايتان : ١٣٥ – ١٣٦.
[2] سورة الحج ، الاية : ٢٢. وينظر العقيدة الإسلامية في القرآن الكريم ومناهج المتكلمين لـ د.محمد عياش الكبيسي : ٨٠.

ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[1].فالربط هنا قائم بين دليل الإعجاز الأول – الخلق – ودليل الإعجاز الثاني – خرق العادة – وكذلك الربط قائم في الإعجاز الثاني بين إثبات ربوبية الله وحده ، وإثبات صدق موسى – عليه السلام – في دعواه أنه رسول من عند الله...

ب- يوم أن تحدى القرآن العرب بل وتحدى الأنس والجن على أن يأتوا بمثله فقال:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ ﴾[2].وسكت العرب فأسكت سكوتهم الإنس والجن ووقفوا مبهورين حتى قال قائلهم: " أشهد أن هذا لا يقدر عليه بشر " والذي لا يقدر عليه البشر فمن الذي يقدر عليه ؟ صحيح أن هذا التحري جاء لإثبات صدق الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلا أن التصديق بالرسول فرع التصديق بالمرسل.

[1] سورة الشعراء ، الايات : ٢٣ – ٣٣.
[2] سورة الإسراء ، الاية : ٨٨.